تصدير

ترجع فكرة هذه الدراسة إلى مصدرين أولهما: حصيلة تجربتي المعرفية والدراسية في ثقافة الغرب (فرنسا) والآخر ما انتهيت إليه في كتاب سابق بعنوان « المناهج المعاصرة للدراسات الأدبية » الصادر في المغرب عام 1983، من أن مضمار الدراسات الأدبية العربية، مضمار يعاني من غياب الأساليب أو التفكير العلمي، وأن أغلب محاولات الباحثين أو نقاد الأدب تواجه أزمة الحاجة إلى منهج يوجهها أو مناهج تؤمن بأن أخص خصائص الدرس الأدبي أو النقدي أنه خطوات علمية لا تكديس معلومات أو سرد وقائع أدبية .

إن الحاجة ماسة في ثقافة الشرق العربي إلى تزايد الاهتمام بالمنهج أو التفكير العلمي، الذي يعتبر عنصرًا أساسيًا في ثقافة الغرب، فالمنهج أو التفكير العلمي في معالجة الظواهر أو القضايا أو المشكلات الأدبية أو الثقافية أو الإنسانية يعد من أهم مقاييس نمط الثقافة من حيث درجة تخلفها أو تقدمها .

وعلى هذا الأساس نفهم لماذا حظي كتابنا عن "المناهج المعاصرة" باهتمام الكثير من المثقفين والباحثين في المغرب، حيث كان ومازال يعتبر الكتاب الوحيد في المكتبة العربية الذي يعالج هذا الموضوع، من زاوية معرفية لا مدرسية، ونهض على أساس عدد من المفاهيم والأسس، أهمها: شرح مبادئ كل منهج شرحًا واضحًا ومحددًا، وإعطاء أمثلة تطبيقية لمختلف المناهج، هذه السمات أو الخصائص التي اتسمت بها هذه الدراسة لا يجدها القارئ في دراسة الجابري المسماة "المنهجية في الآداب والعلوم الإنسانية" الصادرة عام 1986 (أي بعد صدور كتابنا بثلاث سنوات) .

ورغم أهمية كتاب "المناهج المعاصرة للدراسات الأدبية" الذي وضع في مدينة مراكش بمناسبة إلقاء محاضرات بكلية الآداب هناك، عام 1982 حجبه الظلام عن القارئ العربي، لأنه لم يتجاوز حدود المغرب في ذلك الحين. فضلاً عن مشاغل الحياة المختلفة التي أخذت الباحث، إلى أن أتيحت له فرصة إضافة إليه بعض عناصر

جديدة وأعاد طباعته في الكويت عام 1996 تحت عنوان "المناهج المعاصرة لدراسة الأدب" وحين وقعت نسخة منه بين يدي الدكتور محمد رجب البيومي، الأستاذ بجامعة الكويت اقترح أن يدرس على طلاب الجامعة هناك.

ولكن لماذا الاهتمام بالمنهج أو المناهج المعاصرة؟ الجواب لأن المنهج هو العلم، وفي ثقافة الشرق العربي يحتل العلم في عناصر بنائها مساحة ضيقة، فنحن في حاجة ماسة إلى فهم واستيعاب أسس وخطوات التفكير المنظم الذي تقبله كل العقول وتتفاعل معه لغويًا وفكريًا وثقافيًا في مجال الدراسات الأدبية أو مجال الظواهر الثقافية أو الإنسانية، باعتبار أن هذا التفكير هو التفكير العلمي الذي يقاس به مدى تقدم أو تخلف الحضارات، أو مدى تخلف الثقافات أو تقدمها.

إن الخطوات المنهجية التي يخطوها الباحثين في ميدان من ميادين الدراسات الأدبية أو الإنسانية تعكس وتعبر عن طبيعة الثقافة التي ينتمي إليها هؤلاء الباحثين من زاوية الحداثة والتعقيد أو من زاوية التخلف والتبسيط.

هذه الدراسة محاولة لإلقاء بعض الضوء على طبيعة المنهج عند الباحثين في ثقافة الشرق العربي، وعند الباحثين في ثقافة الغرب، وإلقاء الضوء على هذه المسألة يجعل القارئ يعرف طبيعة الإطار الثقافي الخاص وطبيعة الإطار الثقافي العام للباحث، ويعرف أيضًا لماذا تبدو أغلب الدراسات الأدبية في الشرق العربي مترددة وتميل إلى طابع اللامنهجية أو اللاعلمية في معالجة النصوص الأدبية أو الظواهر الثقافية أو الإنسانية وتنطلق من نظرة تبسيطية أو وصفية تجزيئية.

في حين أن مناهج الباحثين في ثقافة الغرب في معالجة نفس الموضوعات تبدو ذات سمات معقدة أو مركبة وقائمة على أساس المعايير والأساليب العلمية أو المنهجية المختلفة.

إن مناهج أغلب الباحثين في شرقنا العربي في هذا المضمار، مناهج إما غامضة أو محرفة عن أصولها في الثقافة الغربية، وإما صحفية معلوماتية تعتمد على سرد الوقائع وتكديس المعلومات. والحق أن كل دراسة أو بحث لا يطبق صاحبه منهجًا معينًا يعد نصًا صحفيًا لا نصا دراسيًا أو بحثيًا، يعكس ويعبر بطريقة مباشرة وغير

مباشرة سلوك وفكر الباحث أو الدارس من ناحيـة ويعكـس ثقافتـه وحضارتـه مـن ناحية أخرى .

ومعنى ذلك أننا إذا أرادنا التعرف على طبيعـة ثقافـة مـا، فعلينـا أن نتعـرف علـى طبيعة مناهج الباحثين أو الدارسين فـي هـذه الثقافـة. علـى أسـاس أن المنـهج هـو محصلة التفاعل بين إطار ثقافة الباحث الخاصة وبين إطار ثقافته العامة، فهو يعكـس ويعبر إما عن درجة تخلف الثقافة وإما عن درجة تقدمها بمعنى ما من المعاني.

ونحن نفترض أن مناهج الدراسات الأدبية والإنسانية تعكس وتعـبر عـن طبيعـة ثقافة الباحثين بالمفهوم الحضاري الواسع، وهذا القول لا ينسحب على مناهج العلوم التجريبية أو الدقيقة، لأنها مناهج غير شائعة من ناحية، وذات طبيعة موضوعية تتسم بالعمومية والشمول من ناحية أخرى، وهذه السمات يمكن أن تجعلها تطبـق فـي كـل زمان أو مكان وفق معايير وأساليب شبه متشابهة، وإن كانت درجة شيوعها أو ندرتها في ثقافة ما تعكس وتعبر عن درجة اتساع مساحة العلم والثقافـة العلميـة فـي هـذه الثقافة أو تعكس وتعبر عن درجة محدودية مساحة العلم أو الثقافة العلمية فـي هـذه الثقافة.

ونقصد في دراستنا بإطار الثقافة الخاصة للبـاحث حصيلـة المعرفـة الأدبيـة أو العلمية التي حصل عليها بوساطة اطلاعاته ودراساته، ومعارفه الخاصة. ونقصد بإطار الثقافة العامة جماع العناصر التي تشـكل البنيـة العامـة للفكـر واللغـة، والأسـاطير، والرموز، والقيم وموجهات السلوك، ونمط التفكير وأساليبه.

والدراسة تحمل إلى القراء المهتمين بأمر الثقافة بعامة وبأمر المنهج بخاصة، عند النقاد والباحثين العرب المعاصرين، عددًا من الرسائل أهمها:

كيف يُعالج البحث أو الدراسة عند كبار الباحثين والنقاد العرب؟

كيف نكتشف طبيعة ثقافة الباحث أو الناقد من خلال منهجه؟

ونحدد مشخصاته الثقافية والحضارية؟

كيف يعالج البحث أو الدارسة عند كبار النقاد الباحثين في الغرب؟

وكيف نكتشف طبيعة ثقافة الغرب من خلال هذه المناهج؟

كما يحمل رسائل أخرى في مقدمتها رسالة موجهة إلى الباحثين ذوي النزعة الصحفية أو المعلوماتية، كيف إن معالجة نص الدرس أو البحث الأدبي بدون منهج أو مناهج علمية تجعله مرتبطًا بالنص الصحفي لا البحثي.

وقد اعتمدت في تناول موضوع دراستنا هذه على الدراسة التجريبية لنصوص النقاد والباحثين لاستخلاص مناهجهم من واقع خطواتهم الفعلية لا من واقع أقوالهم على المنهج في مقدمة نصوص دراساتهم، ذلك بقصد الوصول إلى فكرة منظمة على المنهج عند الباحثين والنقاد العرب المعاصرين، بمعنى وصفها وتفسيرها. والتجريب الذي قمنا به على نصوصهم وأساليبها المنهجية، يعد من الخطوات العلمية الأساسية التي تنأى بنا عن الصبغة التأملية من جهة وعن غياب القواعد الموضوعية من جهة أخرى، فقد جمعنا بعض الملاحظات، ووضعنا عدد من الفروض التي تفسرها.

وصاحب هذا المؤلف مدين لزوجته، وصديقه الأستاذ حاتم البصيص الذي كلف نفسه مشقة مراجعة هذا العمل، وقراءاته قراءة مفصلة، ولقي عنده من التشجيع ما يفوق كفاءتي ولا يتناسب إلا مع كرم نفسه، ولا أملك سوى أقدم له جزيل الشكر والاعتراف بالفضل.

وكذلك أقدم شكري للسيد / محمد عبد الفتاح عبد الحميد فلولا جهده وحذقه لما تسنى للكتاب أن ينشر في هذه الصورة.

سمير حجازي